الرجال

قصة بقلم رسمية الطائي

لم تمت بسهولة ، وكم كانت صعبة لحظات مخاضها ذاك المساء . لقد هرول كل من في البيت مرتاعا على لوعة صراخها وقرقرة اللهاث . نزل محمود من غرفته مشدوها بفردة نعال ، وطقطقت زكية بقبقابها مسرعة ، وكان الوالد واقفا عند رأسها وعلى استعداد . لم يُجد علاج لها . ولم يستطع أي منهم ردع الموت وهو متبطن في عنزتهم الولود المحمومة ، عنزتهم القهرائية ذات العيون الواسعة . ظلوا متكتفين حولها يرون نصف الجنين والموت فيها جاد . وبضمة نفس عميقة شربت العنزة هواء الارض ، سقط جنينها فاستدارت عنه ببوزها ونامت اجفانها باعياء . كان الجنين لحمة دبقة بعيون دامعة وقوائم متراخيات ، علقت به ذيرات التبن والتراب حال ان تسلمته الارض فتمرغ قربها قطعة مبللة قذرة واشتعل البيت أسفا ، لقد ماتت العنزة ، ماتت العنزة والأسفاه . جاءت جارتهم مع ثلة صبيانها راكضة وقد سمعت النبأ ، وكانت خبيرة في عسر الولادات . حاولت فحص الروح الميتة ، وجس منابت الوعي منها ، الا ان العنزة أبت الحياة بعناد التيوس والخرفان .. خلال هذا اكتشف ان جنس المولود ذكر ، انه سخل ، عنز ، ولا غير ، وهي عنزة سخية ، كريمة الدسم معطاء ، لقد قتل السخل عنزتهم ، ولقد فقدوها بسببه ، فما أتعسه مولودا غير جدير بقتل الحياة . من يجني سخلا بلا والدة ؟! سخلا يعيش على لبن الناس . وعندما يكبر لن يدفع ديونه ، بل لن يدفع شربة لبن واحدة، وكيف يدفع من كان بلا أنداء ؟! لقد قتل والدته هذا العنز العاق . وهو مطروح قربها وكأنه البريء الخائف من الحساب . لا زالت رائحة الدماء حارة به تذكرهم فيهمل أيما اهمال .

ولقد شيعت العنزة بكل ما يليق بها من احترام ، ووضعت فوق صندوق القمامة بعد ان غطيت بحصير أجرب خوفا من الذباب . وعاد الوالد مهموما للدار ، كما صعد محمود لغرفته متباطئا ، وظلت زكية تكنس وتغسل البقعة الدماة ، قريبا من ولدها الذي كان اخر عطاياها . كانت عيناه سوداوين حزينتين ، وبطنه يرجف كبطن جبان خواف ، وقد انطوت سيقانه تحته وسال جسده بارتخاء . تجنبت زكية ان تبله بالماء وفكرت لو تجلب له غطاء . او تأخذه معها الى الغرفة قرب النار . عليها ان تنظف أقذاره بعد ان تنتهي من كنس المكان ، وتمسح ما عليه من آثار . جلبت خرقة وظلت تمسحه فظهرت بشرته القطيفة اللامعة ، ورأسه الصغير ، ووضحت أذناه . كان صغيرا جدا ، ولكن كل صغير يكبر ، وسيكبر سخل عنزتهم في يوم ما . سيشرب الحليب ، وستطعمه زكية الحليب بالملعقة حتى يتعود على شربه بالاناء . ربما كان جائعا ، فلماذا لا تطعمه ؟ وفرحت قليلا . وهذه أول مرة تفرح بعد موت عنزتهم . وكانت عزيزة عليها ، ولقد بكت حين أخرجت ميتة من الدار . تماما كما أخرجت أمها من البيت قبل ثلاثة أعوام . ولقد صاحت زكية وبكت ولم ترد عليها الاثنتان . اعتادت على حلبها بعد وفاة والدتها كل صباح ومساء ، وكان عمر زكية عشر سنوات وسرعان ما تآلفتا وباتتا وحيدتين في البيت بعد ان يخرج ابوها صباحا لعمله مناديا في مزاد السوق . وكثيرا ما تغيب اخوها محمود الجندي في الثكنة . له عطلة يوم واحد في الاسبوع غالبا ما يتغيبها مع اصدقائه في المقهى يلعبون الطاولة ويشربون الشاي . وكانت العنزة اليفة ، طيبة ، مطيعة ، لا يجار صوتها الا وقت تأخر برسيمها عنها ، وهي تعرف اوقاتها في الغداء . لم تجد زكية مشقة معها وهي صبية جاهلة طباع الحيوان . بقعتها في الحوش مملوءة بها والمكان أنيس بنفسها وهي حية من الاحياء . آثارها لا زالت موجودة في البرسيم والشعير المبعثر هنا وهناك . مسكينة أمها لم تترك شيئا بعد ان توفيت سوى ثيابها وقد وزعت على الفقراء . وسوى زكية ومحمود في البيت ، ولينها كانت باقية فتلد لهم اخوة وأخوات . ستسميهم أسماء جديدة ، أسماء من هذا الزمان . تود زكية لو تسمي مثلا (هناء) او (وفاء) وليس كاسمها زكية ، اسما عتيقا تكره نفسها به في بعض الاحيان . وستسمي هذا العنز اسما مناسبا له . ان اسمه (شوقي) . والتفتت زكية نحوه متسائلة ، ما رأيك في (شوقي) ها ؟ وضحكت على نفسها فقد تصورت ان العنز قد لمظت شفتاه الناعمتان .

ليت لها أختا صغيرة ، اذن لخاطت لها الملابس المكركشة وأخذتها معها في الزيارة عند بعض الصديقات . لن تدع أحدا يقص شعرها ، انها تحبه طويلا كي تجعل منه ضفائر على الاذنين معلقات . انها تود البنات الصغيرات ، لكن لا مانع من ان يكون هذا العنز ولدا . ستضع له شريطا اخضر في رقبته ، وربما جرسا ، أو خلخالا بالاقدام . وعندما يكبر سيشرب الحليب بنفسه ويأتيها الى المطبخ جائعا يحمحم انه قد جاع . سيأكل البرسيم ، وهو شيء متوفر ورخيص في ناحيتهم الزراعية ، وستوصي اباها أن يجلب له كل يوم باقة او باقتين . وستطلب منه ان يجلب الشعير ونوى التمر ايضا ، فكل شيء في ناحية (ابي الخصيب) كثير للحيوانات .

***

عندما استيقظت صباحا ، وجدته على حاله متململا في الغطاء ، وعيناه تبلبصان من تحته عسى ان يعرف احدا منهم الآن . انشغلت بامور الفطور . وشرب والدها الشاي الاحمر ، متذكرا الحليب الذي افتقدوه بعد موت العنزة وبسبب هذا العنز الذي لا يساوي ربع دينار. صمتت زكية وكانت تدري انه لن يبقى على هذا الحال ، وقليل من الصبر سيساوي اكثر ، ولكن لماذا يباع ؟

قبل ان يخرج الوالد اشار عليها ان تشتري حليبا وان تطعمه كي لا يموت من الجوع ، الحيوان . هذا ما فكرت به . ما اصدق الرأي . ولكن الوالد رماه بنظره مساوما قدره :

ـ وسنذبحه بعد اسبوعين او ثلاث . نذبحه قبل ان يموت ان شاء الله .

يبست شفتاها : ـ ولكن ، لماذا ؟! والبارحة قد جاء !

ـ لماذا ؟! لان لا فائدة منه ، عنز ، ما الذي وراءه ؟

تشجعت زكية خائفة : ـ اريد ان اربيه .

قهقهة الوالد مستهزئا :

ـ تربينه ؟! الى متى ستبقين انت في عقل النساء ؟!

صمتت زكية ولم تخبره ان اسمه (شوقي) اسم اختارته له من دون الاسماء . والا لكانت مهزلة ولتحدث عنها ابوها وعن عقلها في السوق وعند الاصحاب ، ولتندر عليها في البيت روحا من الزمن . وهرع الوالد خارجا صافقا الباب وراءه ، تاركها واياه .

***

ستربيه اسبوعين او ثلاثة ، هذا ما حكم به ابوها وستعايشه لكي يموت ولا شيء غير ذلك . لا تستطيع ان تتمنى له شيئا ، ان تعلق في رقبته جرسا ، او ان تمنحه اسما وما الفائدة من الاسماء ؟ جاءت

بالحليب ، فلم يستسغ شربه بالملعقة ، وتكبكب على حوافي شفاهه ، وفمه مطبق ، مزموم ، لا فائدة من الاقناع .

بصبر واناة ، حاولت اطعامه . كان يجب ان يأكل عشاءه منذ الليلة الماضية ولكنه رافض ممتنع باشمئزاز ، يلوي برأسه عنها ذات اليمين وذات الشمال . لم يكون قد عرف مصيره ؟ ما أتعس هذا ؟ لقد سمع والدها وهو يتحلفه ، ولكن يجب ان تذوق شيئا ، حاول ان تتطعمه ، خذ هذا فقط ملعقة ، واحدة ، واحدة بالرجاء .

وخلال اليومين ما ذاق العنز شيئا ، وفي اليوم الثالث جلب والدها له ثديا من المطاط ، ناولها اياه معلما :

ـ اطعميه الحليب به . سيعتاد عليه بعدئذ .

استبشرت زكية ، ربما غير والدها رأيه ، لن يذبحه ، وتقد جلب له ما سوف يعتاد عليه في الغداء .

مص العنز الحليب مطمئنا ، مغمضا عينيه بتلذذ متدفئا بالشبع حتى انهاه . وفاته ان يفرق الثدي البارد المطاط عن ثدي أمه الدافيء الذي لم يذق طعمه على الاطلاق . لقد انتهى من وجبة واكل وراءها وجبات . سيكبر ، ويترعرع . تباشرت زكية به متمنية له الرعي في البستان المجاور ، اذا ما كبر ، وحاله كحال بقية الخرفان .

بعد ايام قلائل ارتفعت قوائمه . ونما عوده ، وسمنت فيه لحمات . بات يشمشم بفضول في الارض ، يأكل بخياشيمه شيئا من حشاش الترا ب. كانت زكية تطل عليه بين فترة وفترة تداعبه مستلطفة ، متوهمة بعد الموت عنه . ولم يخالجها اليأس من جدواه .

في صباح الاسبوع الثالث ، امسك والدها كوب الشاي والحليب بين كفيه ، متطعما المذاق ، غير ناس ذم الحليب الذي جاءهم من غير عنزتهم الحلوب الميتة . متذكرا سخلها الذي عليه ذبحه هذا النهار ، فهناك وليمة بالمناسبة ينوي ان يدعو فيها اصحابه ، ومن بينهم (الشيخ ضاري) وابنه (غزوان) وقد يأتي معهم (تقي) و (رحيم) والعنز اصبح كافيا ، على ما يعتقد ، كي يأكل منه خمسة او ستة اشخاص .

شارحا لزكية طريقة شيه بالتنور بعد ان يملأ بطنه رزا وبهارة . ولقد سال لعابه وهو يؤكد :

ـ زكية ، عليك بالتوابل ، لا تنسي التوابل ، انها سر نجاح الطبخ الذي كانت تطبخه امك المرحومة وجارتنا ام جبار .

صمتت زكية ، ثم تساءلت : ـ اتريد كوبا اخر ؟

ـ لا ، لا لقد اكتفيت ، فقط اريد ان اعرف هل ستبيضين وجهي غدا امام الزوار .

وتذكرت زكية الدجاجات التي ذبحها والدها عندما يأتيهم في العادة زوار . وكيف يمسك باعناقها بعد ان يضع جناحيها تحت قدميه كي لا ترفرف فينتشر دمها منقطا كل مكان . وحين ينتهي يرميها على مسافة منه وقد انتهى من الامر القليل الشان . كان يذهب للصيد في مزارع شط العرب القريبة منهم ويأتي محملا بالطيور ، متباهيا بدقته في التهديف ، ومهارته في معرفة الاوكار . وسيسمك السخل اليوم ، وبسهولة ايضا ، ويذبحه بدقة ونجاح . ولكن هذا العنز تعرفه ، ولقد رأت عينيه الصغيرتين الحزينتين حين جاء . وربي عندهم ، ورأت والدته من قبل آنذاك . ما ضر لو بقي العنز في البيت لها تذكارا ؟ وخافت ان تقول شيئا لوالدها لئلا يغضب او يضحك ويجعلها نكتة مليئة بالسخافات . تمنت ان لو ينصحه محمود ، ما ضر محمود لو تدخل في عملية القتل وعارض بالكلام . لكن محمود صامت يأكل فطوره ، انهاه ، وودعهم مهمهما : ـ في آمان الله .

وعلا الوالد صوته :

ـ زكية ، حضري لي السكين والحبال . السكين الحادة ولا تعطيني سكينة المطبخ انها عمياء .

ناولته السكين والحبل ، ولم تشأ اخباره انها ذاهبة الى بيت الجيران .

لندن — سميرة المانع

دار النهضة الحديثة
بيروت - لبنان
ص.ب ٨٤١

ق.ل.
١٠٠٠ تنزيه القرآن عن المطاعن
لعماد الدين أبي الحسن عبد الجبار بن احمد
٢٠٠٠ شرح شواهد المغنى
للامام جلال الدين السيوطي
نقحه وعلق حواشيه الامير شكيب ارسلان
١٠٠٠ المختار من رسائل الصابي
٥٠٠ روضة الطالبين وعمدة السالكين
للامام ابي حامد الغزالي
٥٠٠ محك النظر في المنطق
للامام ابي حامد الغزالي

وتطلب هذه الكتب من المكتبات
الكبرى في الشرق العربي

حتى يعود سعبنا

للشاعر هارون هاشم رشيد

اخر ديوان لشاعر المأساة الفلسطينية ، يغني فيه الالم والامل والعودة الى الارض السليبة الحبيبة ، في نكهة شعرية جديدة .

صدر حديثا — الثمن ٢٠٠ ق. ل